

❖ النظرية التفاعلية الرمزية

- الجذور الأولى لنشأة الاتجاه التفاعلي الرمزي:

لقد بدت جذور هذا الاتجاه واضحة وقوية عند عالم الاجتماع الألماني Max. Weber الذي جعل بؤرة تحليلاته السلوك الإنساني ذي المعنى، بحيث أصبح من العسير تصور هذا السلوك في مجتمع، جماعة، عالقة أو تنظيم، منفصلا عن بطائنه النفسية المتمثلة في القيم، المشاعر والرغبات والمقاصد والغايات. فكانت نظرية فيبر "الفعل الاجتماعي" لها تأثير كبير في انبثاق التفاعلية الرمزية، وذلك عندما ركزت على تفسير الفرد الذاتي للموقف وأهمية المعنى والذاتي. فركز في تعريفه لعلم الاجتماع على أهمية الفهم التفسيري أو المعنى الذاتي حيث عرف علم الاجتماع " بأنه ذلك العلم الذي يحاول أن يقدم فهما تفسيريا للفعل الاجتماعي من أجل الوصول إلى تفسير سببي لمساره ونتائجه. ويتضمن الفعل الاجتماعي كل السلوك الإنساني عندما يحاول الفاعل الفرد إضفاء معنى ذاتي له. والفعل بهذا المعنى قد يكون علنيا، أو ضمنيا وقد يتألف من تدخل ايجابي في الموقف، أو من إحجام متعمد عن مثل هذا التدخل، أو من إذعان سلبي في الموقف. ويعتبر الفعل اجتماعيا بموجب المعنى الذاتي الذي يضيفه عليه الفاعل الفرد أو الفاعلون والذي يأخذ بالحسبان سلوك الآخرين. وبذلك يتوجه في مساره. وبهذا يكون تأثير أعمال فيبر واضحا جليا في علم الاجتماع المعاصر بصفة عامة، إلا أنه كان أكثر وضوحا في أعمال المدرسة الأمريكية لعلم الاجتماع وبخاصة الاتجاه المعروف باسم مدرسة الفعل الاجتماعي والذي تعد "التفاعلية الرمزية" أحد صياغاته المعاصرة.

وقد تطورت التفاعلية الرمزية بشكل رئيسي في جامعة شيكاغو خلال الفترة ما بين الحربين العالميتين، انطلقت من الفلسفة البراغماتية التي نشأت في الولايات المتحدة الأمريكية خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، حيث أكدت على أهمية الفعل والعمل في مقابل التفكير والمنطق والعقل، وهي تجسيد للحياة في المجتمع الأمريكي الذي يتميز بالسلوك والحركة وبالبناء والتغير.

ويرجع الفضل في بروز هذا الاتجاه وتطوره إلى إسهام العديد من علماء الاجتماع الأوائل أمثال: جورج زيمل (George Simmel)، جورج هربرت ميد (George Herbert Mead)، تشارلز هورتون كولي (Charles Horton Cooley)، هربرت بلومر (Herbert Blumer)، إرفينغ جوفمان (Erving Goffman)

مفهوم التفاعلية الرمزية

هي " محاولة نظرية ومنهجية تهض على أسس فلسفية وسيكولوجية، وتتطلع نحو تحقيق "فهم" أكثر عمقا وأكثر ثراء للسلوك الإنساني، والعلاقات الاجتماعية، بل ولعالم الحياة اليومية برمته" تعتبر التفاعلية الرمزية إحدى الاتجاهات المعاصرة، تقوم على أسس فلسفية وسيكولوجية.

تعتبر السلوك موضوع علم الاجتماع، فتدرس التفاعلية الرمزية التفاعل بين الأشخاص والجماعات، واتجاهات الأشخاص والمعاني التي يعطيها الناس لسلوكهم وسلوك الآخرين. إنه سلوكا مرنا ويتغير باستمرار، لأن طريقة تصرفاتنا تتغير باستمرار حسب توقعاتنا لتصرفات الآخرين ورد فعلهم تجاه سلوكنا.

إذن تدرس التفاعلية الرمزية موضوع الذات (من خلال اهتمامها بالشخصية، والعمليات الاجتماعية كالتفاعل الاجتماعي).

يشير مفهوم التفاعلية الرمزية إلى التفاعل بين مختلف العقول والمعاني، والذي يعد سمة مميزة للمجتمع الإنساني. ويستند هذا التفاعل الاجتماعي على حقيقة هامة هي أن يأخذ المرء ذاته في الاعتبار، وأن يحسب أيضا حسابا للآخرين. تأثر هذا الاتجاه بالفلسفة البراغماتية (النفعية)

تدرس التفاعلية الرمزية الأنساق الاجتماعية الصغرى، تهتم بدراسة الأفراد في المجتمع ومفهومهم عن المواقف، والمعاني، والأدوار، وأنماط التفاعل، وغير ذلك من الوحدات الاجتماعية الصغرى. فهي تختلف عن الاتجاهات النظرية الأخرى التي تدرس الوحدات الاجتماعية الكبرى كالتجاه الوظيفي.

المفاهيم الأساسية للتفاعلية الرمزية

ولأن كل نظرية لها مفاهيمها الخاصة بها، فإن المفاهيم الأساسية للتفاعلية الرمزية تتمثل في:

➤ **الرموز:** أما الرمز فهو "القدرة التي تمتلكها الكائنات الإنسانية للتعبير عن الأفكار، باستخدام الرموز في تفاعلاتهم مع بعضهم البعض"

كما تعني الرموز الأشياء التي ترمز إلى شيء آخر، ويتحدد معنى الرمز بالاتفاق بين الجماعة. وتعتبر اللغة أهم الرموز للتفاعل الاجتماعي.

وتعتبر الرموز أساس التفاعل البشري، لأن الاتصال بالآخرين يكون من خلال الرموز التي لها معانيها ودلالاتها عند الآخرين. فيصبح الرمز معنى مشترك بين الأفراد، ويكتسب صفة الاجتماعية، (رمز اجتماعي) من خلال التفاعل مع الآخرين.

مثال:

- الخاتم: في بعض الثقافات رمز للزواج، وفي أخرى قد يكون مجرد زينة.

- الإبهام للأسفل: في روما القديمة يعني "الإعدام"، اليوم قد يعني "عدم الإعجاب".

➤ **المعاني:** أما المعاني حسب التفاعلية الرمزية فهي ليست أشياء موروثة وكامنة في ذات الأشياء، ولكنها تعبر عن إحساس أولي للشعور الإنساني نحو الأشياء.

مثال:

ارتداء اللباس الممزق: عند الجدة: "فقر" أو "إهمال". عند الشباب: "موضة" أو "تمرد".

➤ _ السلوكيات والتوقعات: يقوم الناس بسلوكيات حسب توقعات الآخرين منهم، فيأخذ الأفراد بعين الاعتبار أن تكون تصرفاتهم مناسبة لتوقعات الآخرين، وكذا الآخرون لديهم نفس التوقعات(توقعات متبادلة).

مثال:

- في مقابلة عمل: يتوقع صاحب العمل أن يكون المتقدم للوظيفة مهيئاً ومؤهلاً (توقع حول سلوك المتقدم). ويتوقع المتقدم أن يكون صاحب العمل محترفاً ويقدم معلومات واضحة عن الوظيفة (توقع حول سلوك صاحب العمل). سلوكيات الطرفين خلال المقابلة تؤثر على هذه التوقعات وتقود إلى تقييم متبادل.

- في الحياة اليومية: نتوقع أن يحيينا الأصدقاء عند رؤيتهم (توقع حول سلوك الأصدقاء). إذا لم يفعلوا ذلك، قد نفسر سلوكهم بأنه تجاهل أو انشغال (تعديل للتوقع وتفسير للمعنى).

➤ الأدوار والتفاعلات: التوقعات المرتبطة بسلوك أشخاص معينين تسمى أدواراً. بالإضافة إلى توقعات الأدوار.

مثال:

المراهق: مع الأهل: مطيع، خجول. مع الأصدقاء: قائد، مُتمرد

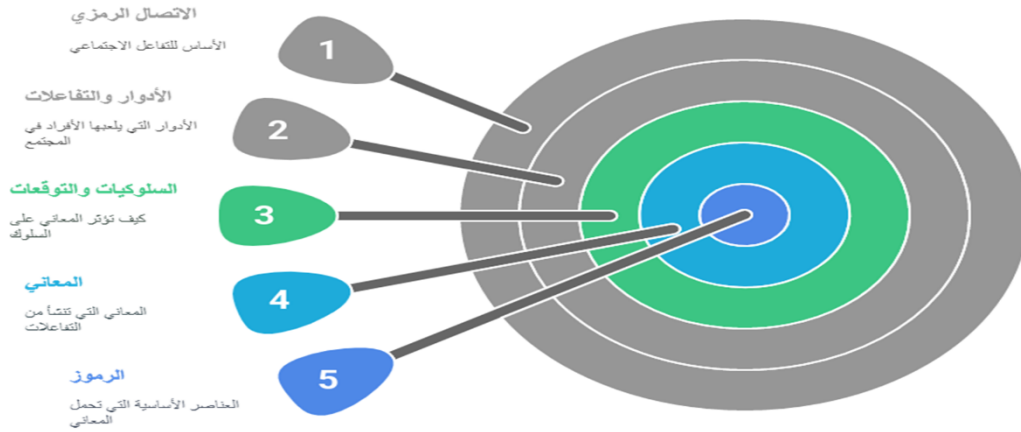
➤ الاتصال الرمزي: هو التفاعل الذي يحدث بين مختلف العقول والمعاني، والذي يميز المجتمعات الإنسانية. ويقوم الاتصال الرمزي على أساس أن الفرد يأخذ في عين الاعتبار وجود الآخرين

مثال:

العلامات والإشارات: إشارات المرور، علامات الشركات، كلها رموز تحمل معاني محددة.

-اللغة العربية بلهجتها المحلية: الكلمات والتعابير المستخدمة في سكيكدة تحمل معاني خاصة قد تختلف عن لهجات عربية أخرى. هذه اللهجة هي نظام رمزي أساسي للتواصل اليومي.

-الإيماءات ولغة الجسد المحلية: بعض الإيماءات أو تعابير الوجه قد تحمل معاني محددة في ثقافة سكيكدة وقد لا تكون مفهومة بنفس الطريقة في ثقافات أخرى. على سبيل المثال، طريقة المصافحة أو الإشارة إلى مكان ما.



أبروود التفاعلية الرمزية

❖ جورج هيربرت ميد: التركيز على الرموز والذات الاجتماعية:

يُعد ميد رائدًا أساسيًا في التفاعلية الرمزية، حيث أكد على أن القدرة الفريدة للإنسان على استخدام الرموز (مثل اللغة والإيماءات) هي ما يميزه عن الكائنات الأخرى وتمكنه من بناء المجتمعات والثقافات المعقدة. يرى "ميد" أن الأفراد لا يستجيبون للأشياء بشكل غريزي، بل بناءً على المعاني التي يضيفونها عليها في سياق تفاعلاتهم مع الآخرين، مع أخذهم في الاعتبار توقعات الآخرين. تأثر ميد بفلاسفة وعلماء اجتماع بارزين، وطور مفهومًا للذات باعتبارها نتاجًا اجتماعيًا يتشكل من خلال الخبرات الاجتماعية و التفاعل مع الآخرين.

يرى أن الذات تتكون من بعدين: "الأنا الداخلية" (تصور الفرد لذاته) و "الأنا الخارجية" (تصور الفرد لنفسه كما يراه الآخرون). كما وافق كولي على أهمية الجماعات الأولية (كالأسرة وجماعات اللعب) في التنشئة الاجتماعية وتطور الذات.

يرى ميد أن العقل لا يمكن أن يتطور إلا في سياق بيئة اجتماعية منظمة من العلاقات والتفاعلات، وأن نموه يعتمد على العملية الاجتماعية للخبرة والنشاط. وقد انتقد بعض جوانب أفكار كولي حول الاتصال.

➤ انطلق ميد من مفهومي الذات والسلوك الاجتماعي.

✓ الذات : يُكتسب الوعي بالذات من خلال التفاعلات الاجتماعية والخبرات الاجتماعية التي يعيشها الفرد، حيث يعرف ميد الذات بأنها دمج لكيفية نظر الفرد لذاته وكيف يراه الآخرون. كما يرى أن الذات تتكون من شخصية فردية (الأنا) وشخصية اجتماعية (الآخرين).

وحدد عوامل تؤثر على إدراك الفرد لذاته منها:

- كمية المعلومات، القدرة على التمييز بين الخيال والواقع، الاهتمام بالآخرين، ونقص الخبرات.

✓ أما السلوك الاجتماعي: فهو انعكاس للتفاعل المستمر، ويعتمد على قدرة العقل البشري على استخدام الرموز والإشارات التي تحدد وتنظم سلوك الفرد في المجتمع. يعتبر ميد أن اللغة والرموز والإشارات هي الأدوات الرئيسية للتفاعل الاجتماعي، ويرى أن المجتمع هو شرط أساسي لتطور الذات وأن الأفراد هم من يفسرون المجتمع.

❖ تشارلز هورتون كولي: الذات الاجتماعية وأهمية الجماعات الأولية:

يُعد كولي من الرواد المؤسسين للاتجاه النفسي الاجتماعي في علم الاجتماع، وقد ركز في دراساته على نمو الذات وتطورها وتأثيرها بالبيئة الاجتماعية، خاصة الجماعات الأولية. أكد على أن تصورنا لذواتنا ينبع من تصورنا لكيف يرانا الآخرون، وهو ما يُعرف بمفهوم "مرآة الذات".

يرى كولي أن الاتصال هو الآلية التي تنشأ وتنمو من خلالها العلاقات الإنسانية، عبر وسائل متنوعة تمكن من انتشار المعاني عبر المكان والزمان.

يعتبر أن الذات الاجتماعية للفرد هي نتاج التفاعل بين عالمه الداخلي (عقله وحياته النفسية) والمجتمع. تركز عملية التفاعل عند كولي على أربعة عمليات أساسية: التفاعل أو الاختلاط بين مجموعة أفراد لمدة من الزمن تتراوح بين يومين إلى أكثر من سنة، تقييم الفرد من طرف الآخرين، بعد وقوع التفاعل بينه وبينهم. أي بين الذات والجماعة أو المجتمع، تقييم الفرد لذاته وفقاً لتقييم الآخرين له، فإذا قيمه الآخرون تقييماً إيجابياً فإنه يقيم ذاته وفقاً لذلك التقييم.

ويرى "رونالد فليتشر" أن أفكار كولي الأساسية تتلخص فيما يلي:

رفض الفصل بين الفرد والمجتمع، التأكيد على دور الغرائز والعواطف والعقل المشكل اجتماعياً، أهمية الاتصال الاجتماعي في الوعي بالذات، فكرة أن المجتمع مُبتكر، دعم العلاقة بين الذات والمجتمع عبر مفهوم "مرآة الذات"، الاهتمام بالجماعات الأولية والتنشئة الاجتماعية والأخلاق، والسعي نحو تصور للمجتمع الإنساني يركز على الأخلاق والمعرفة العلمية. يؤكد كولي على أن الفرد هو عضو في البناء الاجتماعي وأن الحياة الإنسانية هي وحدة متكاملة للفرد والمجتمع.

❖ هربرت بلومر: تطوير التفاعلية الرمزية ودراسة السلوك الجمعي:

يمثل بلومر الجيل اللاحق من رواد التفاعلية الرمزية، وقد طور أفكار ميد وأضاف إليها. لم يحصر التفاعل في العلاقات بين الأفراد فقط، بل شمل تفاعلات الأفراد مع المؤسسات والمنظمات والمجتمع والطبقات والظواهر الاجتماعية.

من منظور التفاعلية الرمزية، يرى بلومر أن المجتمع هو مجموعة من الذوات الفردية التي تتفاعل معاً لإحداث سلوك اجتماعي. أكد على أهمية المواقف باعتبارها سياقات اجتماعية يحددها الأفراد ويمارسون

أنشطتهم في إطارها. كما يرى أن الفهم المعرفي للموقف ضروري للسلوك الاجتماعي. طبق بلومر هذا المنظور على دراسة السلوك الجمعي مثل الحشود، ووضع مبادئ أساسية للتفاعلية الرمزية. انتقد بلومر تطبيق مناهج العلوم الطبيعية على دراسة السلوك الإنساني ودعا إلى استخدام مناهج كيفية في علم الاجتماع.

❖ انتقادات موجّهة للتفاعلية الرمزية:

على الرغم من أهمية التفاعلية الرمزية، فقد وُجّهت إليها انتقادات تتعلق بصعوبة تطبيق المناهج الكمية على مفاهيمها، وغموض بعض تحليلات روادها وعدم قابليتها للاختبار، وإهمالها لدراسة البنى الاجتماعية الكبرى، وعدم تعمقها في دراسة بعض الظواهر الاجتماعية كالجريمة والانحراف، بالإضافة إلى إهمالها للبعد التاريخي في التحليل الاجتماعي.

❖ الاتجاه الظاهراتي في علم الاجتماع

تمهيد:

ظهرت الظاهراتية في القرن العشرين (20م) كاتجاه في الفلسفة المعاصرة، مؤسسها "ادموند هوسرل Edmund Husserl" (1859-1938) طورها "الفرد شوتز. A. Schutz (1899-1959) عالم اجتماع نمساوي وهو تلميذ لـ هوسرل اشتهر بكتابه "فينومينولوجية العالم الاجتماعي"، ويعد رائد التحليل الفينومينولوجي في علم الاجتماع وأول من نقل ووظف المنهجية الفينومينولوجية في البحوث السوسيولوجية.

1/ تعريف الفينومينولوجيا:

الظاهراتية أو الفينومينولوجيا هي دراسة الأشكال المختلفة للوعي والطرق التي بها يدرك الناس العالم الذي يعيشوا فيه، و كلمة "فينومينولوجيا" Phenomenology هي كلمة مركبة تتكون من مقطعين "Phenomena": وتعني الظاهرة و "Logy" وتعني الدراسة العلمية لمجال ما، وبذلك يحيل معنى الكلمة المركبة "فينومينولوجيا" إلى : العلم الذي يدرس الظواهر، والمقصود بالظواهر في مصطلح الفينومينولوجيا ليس هو ظواهر العالم الخارجي الطبيعية الفيزيائية كما تدرسها العلوم الأخرى، بل ظواهر الوعي، أي ظهور موضوعات وأشياء العالم الخارجي في الوعي، وبذلك تكون الفينومينولوجيا هي: "دراسة الوعي و على عكس سيكولوجيا المعرفة التي بالظواهر وطريقة إدراكه لها وكيفية حضور الظواهر في خبرته.

وتعرف فلسفيا دراسة كيفية ظهور الأشياء في الوعي، وبتعبير آخر مكرسة لفهم الوعي في شكله الخام مع الأخذ بالتجربة الذاتية كنقطة انطلاق بدلا من البدء بعالم الطبيعة الموضوعي لذلك هي فلسفة تجريبية وليست عقلانية.

أهم المفاهيم الأساسية للنظرية الظاهراتية :

1. عالم الحياة (Lebenswelt):

يُعد مفهوم عالم الحياة حجر الزاوية في النظرية الظاهراتية، ويشير إلى العالم اليومي المعيش الذي نخبره بشكل مباشر ونعتبره أمراً مفروغاً منه. يعتبر شوتز أن عالم الحياة هو المنطقة التي نقضي فيها معظم حياتنا، وهو الأساس الذي تقوم عليه جميع مناطق المعنى الأخرى.

مثال: عندما تستيقظ في الصباح، فإنك تتحرك في عالم حياتك. أنت تفترض أن سريرك سيكون هناك، وأنت ستجد طريقك إلى الحمام، وأن القهوة ستكون متاحة. هذه الافتراضات والمعارف العملية هي جزء من عالم حياتك.

2. الذاتية المشتركة (Intersubjectivity):

تشير الذاتية المشتركة إلى العلاقة بين وعي شخص ووعي أشخاص آخرين في الحاضر، وهي الأساس الذي يُبنى عليه عالم الحياة. من خلال التجارب والتواصل المشتركين، يخلق الأفراد فهمًا مشتركًا للواقع. لا يمكن اختزال الواقع الاجتماعي إلى علاقات بين أفراد منعزلين؛ فبدون الذاتية المشتركة، لا يوجد في نهاية المطاف واقع اجتماعي. تسمح لنا الذاتية المشتركة بفهم معاني أفعال الآخرين والتفاعل معهم بناءً على هذا الفهم.

مثال: عندما تتحدث مع صديق، فإنكما تشتركان في فهم مشترك للغة والإيماءات والتوقعات الاجتماعية. هذه الذاتية المشتركة هي التي تمكنكما من التواصل بفعالية.

3. القصدية (Intentionality):

القصدية هي خاصية أساسية للوعي، وتعني أن الوعي موجه دائمًا نحو شيء ما. كل تجربة واعية هي دائمًا "عن" أو "بشأن" شيء ما في العالم، والمعنى يتكون من خلال هذه العلاقة بين الوعي وموضوعه. الوعي ليس مجرد مستقبل سلبي للمعلومات؛ بل يشكل العالم بنشاط كما نختبره.

مثال: عندما ترى شجرة، فإن وعيك موجه نحو تلك الشجرة. إن رؤيتك ليست مجرد استقبال سلبي للضوء، بل هي فعل واعٍ يتضمن إدراكًا وتفسيرًا للشجرة.

6. مخزون المعرفة (Stock of Knowledge):

مخزون المعرفة هو التكوين الخلفي العميق لسلسلة من التجارب السابقة التي تشمل اللغة الأم وقواعدها اللغوية، والأنماط التقليدية لتفسير التعبيرات والأحداث، والعديد من النظريات والأساليب، والأشكال السمعية والبصرية، والتفاهات الثقافية والمعيارية المشتركة. يعتمد الأفراد على مخزون المعرفة الخاص بهم لتقديم تفسيرات في حياتهم اليومية. إنه يشمل "ما يعرفه الجميع" عن العالم الاجتماعي، بما في ذلك العادات والتفسيرات والمؤسسات والروتين والأخلاق والقيم والمعتقدات والأساطير.

مثال: عندما تنتقل إلى مدينة جديدة، فإنك تعتمد على مخزون المعرفة الخاص بك حول كيفية عمل المدن بشكل عام (مثل وجود شوارع ومتاجر ومبانٍ) للتنقل والتفاعل في بيئتك الجديدة.

7. البناء الاجتماعي للواقع (Social Construction of Reality):

يرى علم الاجتماع الظاهراتي أن الواقع الاجتماعي ليس شيئًا ثابتًا أو موضوعيًا، بل هو عملية مستمرة من البناء الاجتماعي من خلال التفاعل والذاتية المشتركة. يتم إنشاء المفاهيم والتمثيلات الذهنية من خلال تفاعلات الأفراد والجماعات بمرور الوقت، وتصبح هذه المفاهيم معتادة ويتم افتراض أدوار اجتماعية متبادلة. تصبح هذه الأدوار الاجتماعية متاحة لأعضاء آخرين في المجتمع، وتعتبر تفاعلاتهم سلوكيات مؤسسية، ويصبح معنى الدور الاجتماعي جزءًا من المعرفة الثقافية في المجتمع.

مثال: مفهوم "المال" هو بناء اجتماعي. لا يوجد شيء متأصل في الورق أو المعدن يجعله ذا قيمة. قيمته تأتي من اتفاقنا الجماعي على استخدامه كوسيلة للتبادل.

8. الاختزال الظاهراتي (Phenomenological Reduction) أو الإيبوخيه (Epoché) أو التضمين (Bracketing):

هي عملية منهجية لتضمين أو تعليق الموقف الطبيعي للتركيز على الظواهر كما تظهر للوعي. يتضمن هذا تعليق الافتراضات والتحيزات لتمكين انعكاس أكثر مباشرة على الظواهر كما تظهر للموضوع المُختبر. يسمح هذا للباحثين بفهم معنى التجارب دون تحيزات موجودة مسبقًا. إنها محاولة لوضع افتراضاتنا ومعتقداتنا حول العالم جانبًا مؤقتًا لفحص التجربة الخالصة للوعي. مثال: عند دراسة تجربة الخوف، قد يحاول الباحث استخدام الاختزال الظاهراتي لتضمين أي مفاهيم مسبقة لديه حول الخوف (مثل كونه استجابة بيولوجية أو ضعفًا شخصيًا) والتركيز بدلاً من ذلك على وصف الشخص لتجربته الخاصة بالخوف.

9. المعنى الذاتي (Subjective Meaning):

تؤكد النظرية الظاهراتية على أهمية المعاني الذاتية التي يربطها الأفراد بأفعالهم وتجاربهم الاجتماعية. ترى أن كل فعل اجتماعي يحتوي على خزان من المعاني الذاتية التي تشكل الطريقة التي يتفاعل بها الأفراد مع العالم. فهم هذه المعاني الذاتية ضروري لفهم السلوك الاجتماعي.

مثال: قد يقوم شخصان بفعل نفس الشيء (مثل الذهاب إلى الكنيسة)، لكن المعنى الذاتي لهذا الفعل قد يكون مختلفًا تمامًا لكل منهما (قد يذهب أحدهما لأسباب دينية، بينما قد يذهب الآخر لأسباب اجتماعية).

2/المنهج الفينومينولوجي:

يعتمد المنهج الفينومينولوجي على مسلمتين أساسيتين هما:

أ الامتناع عن إصدار أية أحكام فيما يتعلق بالواقع الموضوعي وعن تجاوز حدود التجربة الذاتي الوعي الخالص. هذه المسلمة، والتي تُعرف غالبًا باسم "الاختزال الظاهراتي" أو "الإيبوخيه"، هي جوهر المنهج الظاهراتي. ببساطة، تعني هذه المسلمة أننا عندما ندرس أي ظاهرة (أي شيء يظهر لوعينا)، يجب علينا أن نمتنع عن إصدار أي أحكام مسبقة أو افتراضات حول طبيعتها الحقيقية أو وجودها الموضوعي في العالم الخارجي.

الهدف من هذا الامتناع عن الحكم هو تجنب تشويه تجربتنا للظاهرة من خلال مفاهيمنا المسبقة ونظرياتنا. نريد أن نصف الظاهرة كما هي تظهر لوعينا الخالص، دون أن نحاول تفسيرها أو وضعها في إطار نظري معين في البداية.

مثال:

لنفترض أنك تدرس تجربة شخص ما مع مرض مزمن. بدلاً من أن تبدأ بافتراضات طبية حول طبيعة المرض وتأثيره، ستركز على وصف الشخص لتجربته الخاصة مع هذا المرض - كيف يشعر، ما هي التحديات التي يواجهها، كيف يرى حياته وقد تغيرت بسبب المرض.

ب- اعتبار موضوع المعرفة نفسه الوعي الخالص وليس الوجود الحقيقي.

هذه المسلمة تكمل المسلمة الأولى. بعد أن نمتنع عن إصدار أحكام حول الواقع الموضوعي، فإننا نعتبر أن موضوع معرفتنا الأساسي هو الوعي الخالص نفسه، أي تجربتنا الذاتية للظواهر، وليس البحث عن "وجود حقيقي" يقع خلف هذه التجربة. الظاهراتية ترى أن كل وعي هو وعي بشيء ما (خاصية القصدية). هذا يعني أن وعينا دائمًا موجه نحو شيء ما - نحو الطاولة التي نراها، أو الألم الذي نشعر به، أو الفكرة التي نفكر فيها.

مثال:

عندما ندرس تجربة الخوف، فإننا لا نبحث عن "جوهر" الخوف في مكان ما في الدماغ أو العالم الخارجي، بل ندرس كيف يظهر الخوف في وعي الشخص - ما هي الأفكار والمشاعر والأحاسيس الجسدية التي تصاحب هذه التجربة.

3/رواد الظاهرتية

1_ألفريد شوتز: من أبرز روادها والذي دخلت الظاهراتية إلى علم الاجتماع من خلاله.

سعى لجعل " المنهج الفينومينولوجي هو منهج المعرفة الذي يستطيع الوعي أو العقل أن يدرسها ويكون معان لها باعتبارها أشياء الموضوعات، ثم التعرف عليها بالحواس وأصبحت لها أشكال ومعنى في نفس الوقت فتصبح المعرفة نتاجا خالصا للوعي الذاتي. رأى "شوتز" بضرورة استخدام "المدخل الاختزالي الفينومينولوجي"، ويتمثل في: تعليق كل أو بعض القضايا والافتراضات العلمية التي تم طرحها مسبقا حول العالم التاريخي والاجتماعي.

فحسب شوتز دور عالم الاجتماع البد أن يقوم على البعد الإنساني في التحليل والفهم. التي تقوم بدورها على تحليل الوعي بالذات ومدى إدراكهما للمعاني المرتبطة بالموضوعات والأشياء. كما سعى "شوتز" لتحليل عالم الحياة اليومية، الذي يتكون من خلال تجميع الأنشطة الذاتية للأفراد ولاسيما أن جميع الأفراد يسهمون في بناءه وتشكيله. وان الوعي والمعرفة التي يكتسبها الفرد ضمن إطار الجماعة هي التي توصله إلى التعرف على العالم الخارجي.

ب- آدموند هوسرل : مؤسس الفينومينولوجيا، أراءه ذات طابع فلسفي اجتماعي، انتقد مجموعة من النزعات والنظريات الوضعية التي حاولت اخضاع الظواهر الاجتماعية للدراسة الامبريقية التجريبية بغض النظر عن خصائصها وطبيعتها. فقد نادى بضرورة تحديث الفكر الإنساني تبني أساليب عقلية وفلسفية تؤمن بأهمية العقل والوعي في تفسير العالم الخارجي.

قارن بين الظاهرة النفسية والطبيعية والاجتماعية. ورأى أن تطبيق المنهج الوضعي في دراسة الظاهرة السيكلوجية، ال يحقق عملية الفهم. وانتقد علماء النفس لاعتمادهم على الملاحظة والتجربة، واهمالهم للوعي الذاتي والعقل.

انتقد النزعة السلوكية لأنها تقوم على الموضوعية، والتوجه نحو المؤثر والاستجابة الخارجية، التأكيد على التعليم والبيئة. انتقد كذلك النزعات التاريخية، التي أصبحت عقيمة لاعتمادها على الحقائق التاريخية، ودعا علماء التاريخ إلى ضرورة دراسة الحقيقة التاريخية التي يدركها العقل والوعي.

اهتم "هوسرل" بفهم الحياة والبحث عن الحقيقة والمعرفة بواسطة التأمل والاستقراء، فالعالم _ عالم الحياة _ يظهر من خلال ما يكتشفه الإنسان أو يردده إلى الوعي الخالص، وهو عالم بيئي وذاتي وما يسمى بعالم الرد أي الرجوع إلى الذات الواعية.

5/تعليق عام على الاتجاه الفينومينولوجي

-الاتجاه الفينومينولوجي يصور الواقع الاجتماعي على أنه مجرد المعاني والخبرات الفردية المشتركة، ويهمل تماما الأساس الاجتماعي الاقتصادي للمجتمع ويجعل وحدة تحليله أفكار الافراد ويسلم بثبات البناء الاجتماعي ضمنيا عن طريق استبعاده من مجال الدراسة ويجعل الانسان عاجزا حيال هذا الواقع الاجتماعي ويدعو الى التأمل في ذاته واكتشافها وتفسيرها بدلا من دعوته لتغيير واقع الاجتماعي.

- الاتجاه الفينومينولوجي لا يعتمد على أي متغيرات تاريخية في تفسيره للظواهر الاجتماعية ولا يميز بين المجتمعات في إطار الزمان والمكان والأدلة الواقعية تنفي صحة المسلمات

- أغلب علماء الاجتماع النقيدين يعتبرون الاتجاه الفينومينولوجي اتجاها محافظا من الناحية الإيدلوجية.

المقاربة الاثنوميثودولوجيا

.Ethnométhodologie

1/ في معنى الاثنوميثودولوجيا:

الاثنوميثودولوجيا مصطلح مركب من جزئيتين: "إثنو": جماعة، سلالة، عرق، و"ميثودولوجيا" تعني منهج البحث، ومنهجية الجماعة. هناك من يترجمه إلى المنهجية الشعبية، المنهجية الواقعية. والمنهجية هنا لا يقصد بها منهج الدراسة لكن محاولة استكشاف الطريقة التي بها يتم دفع الفرد للقيام بما يقوم به. وقد صاغ "هارولد غارفينكل" Garfinkel Harold هذا المصطلح ليشير إلى "نظرية تهتم بدراسة الطرائق والمناهج التي ينفجها الأفراد في الواقع الفعلي لخلق أنماط سلوكية عقلانية تمكنهم من التفاعل والتعايش في معترك الحياة. هذه الطرائق مستمدة من المعرفة والفهم الشائع في المجتمع، وليس من التراث والمناهج العلمية المنظمة التي يحددها العلماء الاجتماعيون. كما يعرفها "جارفينكل" بأنها: "استقصاء الخصائص العقلية لمجموعة التعبيرات والأفعال العلمية التي تتم أثناء الحياة اليومية، وتعبير آخر يشير هذا المصطلح إلى دراسة المعاني التي يعطيها الناس لكلماتهم وأنماط سلوكهم". يمكن تعريف الإثنوميثودولوجيا بأنها دراسة كيفية إنتاج النظام الاجتماعي والحفاظ عليه من خلال الطرق العملية للتفكير المنطقي المشترك والتفاعل الاجتماعي الذي يستخدمه أعضاء المجتمع في حياتهم اليومية

2/ الجذور الفكرية للاتجاه الاثنوميثودولوجي:

نشأت في الولايات المتحدة الأمريكية على يد هارولد "جارفينكل" في الستينيات من القرن الماضي، كانت تيارا مناهضا للنظريات الكلاسيكية خاصة الوضعية. والتي لم تعد مناسبة لتفسير الواقع الأمريكي، مما أد الى وجود تناقض بين الرؤية النظرية والواقع. خاصة وأن النظريات الكلاسيكية لم تهتم بمشكلة التمييز العنصري، هيمنة السلطة السياسية... الخ مهدت الفلسفات الفينومينولوجية والوجودية لظهور الاثنوميثودولوجيا، حيث برز فشل المعرفة النظرية القائمة في فهم الإنسان والمؤسسات الاجتماعية القائمة. كما ظهرت أزمة العلوم الإنسانية بسبب فشل النظريات السوسيولوجية والسيكولوجية التقليدية في فهم الظواهر الاجتماعية خاصة بعد التطورات التكنولوجية السريعة التي لم تستطع النظريات السابقة مواكبتها.

تأثرت بالتفاعلية الرمزية، والفلسفة الظاهرية، لكن الاثنوميثودولوجيا لها موقف مخالف عنهما في نظرتهم للواقع الاجتماعي. حيث أن التفاعلية الرمزية تعتبر أن الإنسان يقوم بصياغة وتشكيل الواقع الذي يعيش فيه من خلال عملية التفاعل الاجتماعي، وعن طريق استخدام الرموز مثل اللغة.

أما الاتجاه الظاهراتي يرى أن الخبرة الذاتية تمكن الإنسان من إدراك جواهر الأمور. ويجب دراسة الواقع كما يوجد في الشعور. هناك الكثير من العلماء من يعتبرون النظرية الاثنوميثودولوجية مدخلا ومنهجيا جديدا، للفينومينولوجية وهذا ما جاء في تصورات "هلموت فاجنر" H. Wagner، في مقالته المميزة عن علماء الاجتماع ذو التوجهات الفينومينولوجية.

كما ارتبط الاتجاه الاثنوميثودولوجي حسب "الفن جولدنر" بالاتجاهات النقدية، فظهر كبديل نظري من بين البدائل النظرية الأخرى متخذة موقفا نقديا من النظريات الكلاسيكية.

برزت مجموعة من العوامل أدت إلى ظهور الاثنوميثودولوجيا تتمثل بإيجاز في:

- التناقض الفكري الواضح للوظيفية وطبيعتها المرجعية في تفسير الواقع الذي ظهرت فيه المجتمع الأمريكي مما أدى إلى وجود تناقض بين الرؤية النظرية والواقع التي تقوم بتفسيره.

- فقدان الثقة في النظريات السوسيولوجية الكبرى وخاصة البنائية الوظيفية، التي لم تعد بمثابة الإطار المرجعي للتفسيرات السوسيولوجية بصورة مرضية من جانب العديد من المهتمين بعلم الاجتماع وخاصة المنظرين له.

_ انتشار حدة الأزمات السياسية والأخلاقية التي تعرض لها سواء المجتمع الأمريكي أو غيره من المجتمعات الأوروبية والنامية نتيجة الانتشار الحروب العسكرية والانفصالية والدينية والسياسية، وعجز العلوم الاجتماعية في دراسة الظواهر والمشكلات الاجتماعية.

- إخفاق النظريات السوسيولوجية التي تقوم على الفلسفات المتجددة مثل الفينومينولوجية والوجودية وغيرها _ ظهور الاتجاه الرافض للزعات العلمية الخالصة مثل الوضعية ومحاولة تطبيقها في العلوم الاجتماعية ذات الطابع الإنساني التي تفسر العالقة بين الإنسان والمجتمع.

4/المفاهيم الأساسية: يقدم أصحاب منظور الإثنوميثودولوجيا عدداً من المفاهيم الأساسية، ومن أبرزها:

1- الإشارية (Indexicality): تشير إلى أن معنى اللغة والأفعال الاجتماعية يعتمد على السياق المحدد الذي تحدث فيه. معنى العبارات يعتمد على الإشارة أو الكلمات أو العبارات التي ترسل أو تستقبل أثناء عملية التفاعل. تدرس الإثنوميثودولوجيا كيف يتعامل الناس مع الغموض المتأصل في التعبيرات الإشارية في تفاعلاتهم اليومية ويفكونه.

2- الفعل المنعكس أو الانعكاسية (Reflexivity): ويشير إلى " أن الكثير من أنماط التفاعل التي تحدث بين أعضاء المجتمع تهدف إلى المحافظة على رؤية معينة للحقيقة الاجتماعية التي قاموا بتشكيلها في مواقف محددة. ونجد أن الكثير من أنماط التفاعل بين أعضاء المجتمع تعتبر أفعالاً منعكسة، فالكلمات والإشارات والإيماءات التي نستخدمها أثناء عملية التفاعل، تهدف إلى المحافظة على رؤية معينة للحقيقة الاجتماعية، وتستخدم في تشكيل وتفسير وإعطاء المعاني للعالم الاجتماعي.

3- مفهوم البيئة المرتبطة بالمعنى: يقصد به أن التفاعل بين أعضاء المجتمع يتضمن معان تدركها عقولهم مباشرة، فالإشارات والكلمات والعبارات المتبادلة أثناء التفاعل الاجتماعي يكون لها معان ترتبط بموقف معين، أو بيئة معينة أو ظروف معينة.

4 تجارب الاختراق: هي طرق تستخدم للكشف عن العمل المشترك الذي يقوم به أعضاء مجموعة اجتماعية معينة للحفاظ على نظام اجتماعي يمكن التعرف عليه ومشترك. 1 من خلال تعطيل المعايير الاجتماعية عمداً (اختراق النظام الاجتماعي)، يمكن للباحثين ملاحظة كيفية تفاعل الأعضاء وعملهم على استعادة الوضع الطبيعي، وبالتالي اكتساب رؤية حول الممارسات الاجتماعية الأساسية والنظام الأخلاقي. هذه التجارب بمثابة أداة قوية للكشف عن القواعد الضمنية التي تحكم السلوك الاجتماعي. فمن خلال كسر المعايير الاجتماعية عمداً، يمكن للباحثين ملاحظة كيفية استجابة الناس لهذه الانتهاكات والجهود التي يبذلونها لإعادة إرساء شعور بالنظام. وهذا يمكن أن يوفر رؤية قيمة حول طبيعة وأهمية هذه المعايير.

لتوضيح مفاهيم الإثنوميثودولوجيا، يمكن استعراض بعض دراسات الحالة والأمثلة العملية:

✓ "تجارب الاختراق" لغارفينكل: مثل تجربة الطلاب الذين تصرفوا كنزلاء في منازلهم. 1 فقد طُلب من طلاب الجامعات التصرف كضيوف في منازلهم دون إخبار عائلاتهم بأن هذا التظاهر جزء من تجربة. كان على الطلاب أن يكونوا غير شخصيين ومهذبين، وأن يستخدموا أساليب مخاطبة رسمية وأن يتحدثوا فقط بعد أن يتم التحدث إليهم. 3 هذه التجارب أظهرت بوضوح المعايير المتخذة كأمر مسلم به والتي تقوم عليها الحياة الأسرية اليومية. فقد كشفت ردود

أفعال أفراد العائلة غير المتوقعة على سلوك الطلاب غير المعتاد عن القواعد والتوقعات الضمنية التي تحكم عادةً التفاعلات داخل المنزل، مما جعل هذه المعايير مرئية من خلال تعطيها.

✓ دراسات حول إدارة الطوابير والنظام الاجتماعي في الأماكن العامة: فقد وجد غارفينكل عند دراسة الطوابير التي تتشكل في الأماكن العامة أن حتى مثل هذا الوضع غير المنظم يتطلب نهجاً نشطاً وتأملياً. 18 حتى المواقف التي تبدو غير منظمة تحكمها ممارسات اجتماعية دقيقة يتم الحفاظ عليها بنشاط. فالطريقة التي يشكل بها الناس الطوابير ويحافظون عليها، بدون قواعد صريحة، تكشف عن التفاهات والطرق المشتركة التي يستخدمونها لإنشاء النظام في هذه المواقف.

✓ تحليل تفاعلات قاعات المحاكم والبناء الاجتماعي للإجراءات القانونية: يمكن لتحليل المحادثة أن يدرس تسجيلات إجراءات المحكمة أو المناقشات التشريعية للتعرف على البناء الاجتماعي للقانون والعقاب. 5 يمكن للإثنوميثودولوجيا أن تلقي الضوء على كيفية بناء الحقائق القانونية من خلال تفاعلات المشاركين في قاعة المحكمة. فمن خلال فحص اللغة وأنماط التفاعل في قاعات المحاكم، يمكن للإثنوميثودولوجيين إظهار كيف يتم تأسيس الفئات القانونية، والذنب، والبراءة من خلال العمليات الاجتماعية.

3/ الجماعة والحياة اليومية:

الحياة اليومية عند "غارفينكل" تستند إلى دفع خفي ومعنوي تجبر به الجماعة الفرد على اختيارات معينة ويرى "غارفينكل" أن الدراسات الإثنوميثودولوجية تحلل أنشطة الحياة اليومية تحليلاً يكشف عن المعنى الكامن خلف هذه الأنشطة، وتحاول أن تسجل هذه الأنشطة، وتجعلها مرئية وصالحة لكل الأغراض العلمية، وتهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن الطرائق التي يسلكها أعضاء المجتمع خلال حياتهم اليومية لتكوين نوع من الألفة بالأحداث والوقائع (غسيل الدماغ) وقد رأى "غارفينكل" أهم جوانب الحياة الاجتماعية هو الجانب الخفي الذي لا نحس به (لأنه مألوف لدينا)، ومن ثم فإن وظيفة عالم الاجتماع تتحدد في الكشف عنه ومحاولة جعل الناس يدركونه من خلال مخالفة القواعد الضمنية الغير مدركة بطرق مفاجئة تجعلهم يدركون أنها هي التي توجه سلوكياتهم وتصرفاتهم.

مثال ذلك، أن تقوم مجموعة من الشباب في طريق مزدحم وقت الذروة في مدينة بإطلاق مائة دجاجة لتجري في كل اتجاه، هذا التصرف سيؤدي حتماً إلى ارتباك ودهشة سائقي السيارات ذلك إلى تجمع الجمهور وإلى تشتيت انتباههم، وقد يؤدي وقوع حوادث واختلال حركة المرور ويتوقف السير الروتيني العادي ويضحك الناس بعد تدخل رجال الشرطة وجريهم وراء الدجاج لجمعه من الطريق. النتيجة: هذا الحدث سيؤدي فجأة إلى إدراك الناس لقاعدة خفية لا يلاحظونها، لكنها توجه سلوكياتهم في الحياة اليومية ، ومفادها أنه : لا يجب إطلاق الدجاج في الطرقات أثناء فترات الازدحام في النهار.

5/ التصور المنهجي:

- يرى أصحاب هذا المنظور أنه يجب إثارة التساؤلات حول الأبنية الاجتماعية القائمة فكثيراً من القواعد والمعايير الاجتماعية ليست معروفة بشكل واضح لأعضاء المجتمع، ومع ذلك فهي تستخدم كأشياء مسلم بها، ومن ثم لابد من إثارة بعض التساؤلات التي تكشف عن الطرق والإجراءات التي يستخدمها أعضاء المجتمع لجعل أفعالهم وأهدافهم وخبراتهم الماضية قابلة للتفسير والفهم من قبل الأعضاء الآخرين في المجتمع.

- يرى أصحاب هذا المنظور أن تشكيل الحقيقة الاجتماعية تعد عملية مستمرة من التفسير، وذلك نظراً لأن موافقة أعضاء المجتمع حول تعريف مواقف الحياة تعد عملية متغيرة ديناميكية وغير ثابتة ومن ثم فإن أصحاب المنظور الإثنوميثودولوجي

يضيفون إلى الاتجاهات النظرية الأساسية في علم الاجتماع واهتمامهم بدراسة التغير الاجتماعي على مستوى الوحدات الاجتماعية الصغيرة النطاق.

- أن المنظور الإثنوميتودولوجي يؤكد أن الواقع الاجتماعي في حالة تغير دائم وأنه يمكن دراسة هذا التغير على مستوى الوحدات الاجتماعية الصغرى دون الوحدات الكبرى ونجد أن هذا المنظور يحث الأفراد على تغيير ذواتهم بدالاً من تغيير النظام الاجتماعي القائم.

- رفض "غارفينكل" وأتباعه استخدام المنهج الكمي، واستعمال الاستبيانات أو الاختبارات العلمية، أو أسلوب المقابلة المفتوحة، واستبدل ذلك بالملاحظة، والمنهج التوثيقي، والمنهج شبه التجريبي. وذلك على أساس أن مثل هذه الأساليب الكمية تفصل بين الباحث وموضوع دراسته، وتتضمن معرفة سابقة بالواقع يفرضها الباحث فرضاً على أداة بحث، بالإضافة إلى أن موقف التفاعل بين الباحث والمبحوث يؤثر على حجم ونوعية البيانات التي يتم الحصول عليها. وبالتالي يمكن القول إنها ترفض الأفكار المسبقة في البحوث وفكرة الوجود المستقل للمجتمع عن الأفراد، ففي نظرها لا يجوز تصور الفاعل منفعلاً بما حوله في إطار جبرية مطلقة.

6/ تعقيب عن النظرية:

هناك مجموعة من الانتقادات التي وجهت للتيار الإثنوميتودولوجي، منها أنه تيار محافظ لا يعنى بالمشاكل الاجتماعية والسياسية العويصة والمعقدة، ولا يعطي الحلول لمختلف أنماط الصراع والتوترات التي يعرفها المجتمع. ويمكن الطابع المحافظ للاتجاه الإثنوميتودولوجي في كونه لا يملك تصوراً نظرياً عن المجتمع، ولا رؤية معينة اتجاه العالم الاجتماعي، وهو ما يتماشى مع ما عبر عنه "غارفينكل" صراحة من أن "البحوث الإثنوميتودولوجية ليست موجهة نحو تصحيحات معينة، كما أنها لا تقدم حلولاً.

وتكمن إيجابيات هذا المنهج في كونه يتعمق في بحوثه بغية استجلاء ما هو خفي ومضمّر في الفعل الإنساني، وكشف المعلومات العميقة عبر المشاركة والمعيشة من الصعب الوصول إليها بالطرائق الكمية التقليدية، مع استغلال الوثائق والملاحظة التفهيمية في سبر حقائق الظاهرة الواقعية اليومية. وبهذا، يكون هذا المنهج قد استفاد من الظاهراتية، في تناول الإنسان والدفاع عنه في كليته العامة التي تتفاعل فيها الذات مع الموضوع.

ملاحظة المراجع محفوظة عند أستاذ المقياس